المعتزلة ومساهماتهم في الفكر الإسلامي

بقلم:
أنكو أحمد زكي بن أنكو علوي

Abstract

This article attempts to view the significance of al-Mu'tazilah in the development of Islamic theology. They played a vital role in introducing and developing the methodology of Islamic theology and their impact was so great especially in formation of Islamic epistemology in the field of uṣūl al-Dīn. It highlights the five important principles of Mu'tazilah and reviews the differences between them and al-Asya'irah in understanding the al-qaḍa' and al-qadar issue according to al-Quran and al-Sunnah guidelines.

التمهيد

يحتل المعتزلة في الفكر الفلسفي الإسلامي مكانة كبيرة عبر التاريخ الإسلامي، فهم أقدم المدارس الكلامية وهم أصحاب مدرسة فكرية رائدة وكبيرة سيرةً ومذهباً تسفر عن أصالة في الفكر العربي الإسلامي من حيث أنها كما سيتبين لنا من خلال دراستنا هذه ليست فقط مدرسة إسلامية لها مكانتها ولها رجال خدموا الدين بعقولهم وبقلوبهم، بل سوف نتعرف على فكر عربي أصيل وجهاد علمي ديني صافي ساهم في إثراء تاريخ الفكر البشري وساعد كذلك في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية على مرّ العصور المتعاقبة.

إن من المعروف أن المعتزلة قالوا بخمسة أصول كبرى هي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنـــزلة بين المنـــزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا كان المعتزلة قد قالوا بهذه الأصول الخمسة من حيث أنه لا يعتبر معتزلياً إلا من يقول بهذه الأصول

الخمسة، فهناك أمر يجب أن ننتبه إليه وهو أن أصل العدل بالإضافة إلى أصل التوحيد يعتبران أهم أصلين من الأصول الخمسة حتى عرفوا عامة بأهل العدل والتوحيد.

وإن شاء الله تعالى، سوف أركز تركيزا كافيا في هذا البحث المتواضع على تعريف المعتزلة ونشأتهم ودورهم كمدرسة كلامية إسلامية مع بيان المنهج الذي التزموا به للتوفيق بين العقل والنقل معاً في تشكيل وجهات نظر المعتزلة بشكل عام وشرح أصولهم الخمسة بإيجاز واختصار. وتعد هذه الأصول قوام نظريتهم العامة في العقل والحرية وعلى أساسها رتب المعتزلة عموم مواقفهم من الإنسان والكون والحياة.

ثم تناولت بالتالي مشكلة القضاء والقدر عند المعتزلة وأهمية ارتباط بحث هذه المشكلة بأصل العدل عندهم نموذجا تحليليا وأوضحت بعد ذلك موقف الأشاعرة تجاه الحجج العقلية والشرعية في بعض القضايا العدلية التي أثارها المعتزلة الدائرة حول القضاء والقدر وكذا القول الفصل في هذه القضية وآثار الموقف الاعتزالي في الفكر الفلسفي الإسلامي عامة. وأخيرا، ختمت بحثي هذا بذكر النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي لهذا الموضوع.

تعريف المعتزلة

المعتزلة مدرسة كلامية، بل هي أعظم مدرسة من مدارس الفكر والكلام عرفها الإسلام وأقدمها، ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة البصرة التي كانت في ذلك العصر مجمعا للعلم والأدب في الدولة الإسلامية العربية كما يعد المعتزلة من أهم المدارس الكلامية، بل تعد أيضا مؤسسة علم الكلام الحقيقي بمعنى أن لها نسقا مذهبيا متكاملا في علم الكلام[1].

وفى واقع الأمر، فإن هناك خلافا بين الباحثين في تحديد نشأة المعتزلة بدقة فهناك روايات وأبحاث كثيرة مختلفة تتحدث حول تلك النشأة، على أن من المتفق عليه بين المؤرخين بأن قيام المعتزلة كانت في بداية القرن الثاني الهجري في المدة المحصورة بين ١٠٠ هـ - ١١٠ هـ. وهناك أيضا روايات عديدة يذكرها الباحثون في كيفية نشأة المعتزلة ومن أصح تلك الروايات التي رددها معظم المصادر العربية: "أن ظهور المعتزلة كان

---

(١) هاشم إبراهيم يوسف، **أصل العدل عند المعتزلة**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٦.

بالبصرة، وفي الفترة التي تقع بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري، وأن السبب المباشر لتكوين تلك المدرسة هي الحادثة المشهورة المعروفة، والتي وقعت بين واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري حول تقرير حكم مرتكبي الكبيرة"[٢]. وقد ظهر قرن الاعتزال بمبادئه المعروفة من البصرة التي كانت مسكنا للحسن البصري، ثم انتشر في الكوفة وبغداد ومنها إلى شتى الأقطار والآفاق.

وذهب المستشرق نللينو إلى أن المعتزلة في الأصل كانوا امتدادا للمعتزلة السياسيين الذين اعتزلوا الحرب بين علي ومعاوية وقد اعتمد في رأيه ذلك على روايات الطبري في تاريخه والمسعودي في "**مروج الذهب**"، وأبي الفداء في "**المختصر في تاريخ البشر**"، والدينوري في "**الأخبار الطوال**"[٣]. كما أن النوبختي أيضا يقول برواية مماثلة في اعتزال هؤلاء السياسيين الحرب بين علي ومعاوية وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد[٤]. ويخالف جولدزيهر رأي نللينو ويذهب إلى أن مدرسة المعتزلة الكلامية ولدت من نزعات ورعة وأنه كان من هؤلاء الجماعة الأتقياء الورعين المعتزلة أي الزهاد الذين يعتزلون الناس ويستدل على ما ذهب إليه بأن بعض المصادر الأدبية استعملت كلمة معتزلي كمرادف لكلمة عابد وزاهد والاعتزال صفة يوصف بها الزاهد، وقد عربت كلمة (Pharissee) ومعناه: "الذي ينزوي" إلى كلمة معتزلي. وبالإضافة إلى عنصر الزهد في كلمة معتزلي فإنه عرف عن أوائل المعتزلة أنهم يحيون حياة الزهد والتقشف والعكوف على العبادة[٥]. وجمع الملطي بين رأيي نللينو وجولدزيهر بأنهم معتزلة سياسيون وأنهم اتجهوا إلى الزهد والعبادة طريقا لحياتهم[٦]. "ويربط جمع من المستشرقين منهم شتينر وفون كريمر ودي بوير ودوزي وهوتسما المعتزلة بفرقة القدرية التي سبقتها فيعتبرون القدرية

---

(٢) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٩٤–٩٨.

(٣) الدكتور عبد الرحمن بدوي، **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية**، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة وتعليق، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٧٣-١٧٥.

(٤) أبو القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، **فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق فؤاد السيد، الدار التونيسية للنشر، تونيس، ١٩٨٦، ص ١٣.

(٥) جولدزيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمد صابر موسى وعلى حسن عبد القادر ومحمد يوسف ، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٤٦، ص١٠٠.

(٦) أبو القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، ص ١٥.

سلف المعتزلة ويرون أن المعتزلة كانوا في الأصل نوعا واستمرارا للقدرية في القرن الأول وأن نقطة ابتدائهم كانت مذهب الاختيار وحرية الإرادة"[٧].

أما عن تسميتهم بالمعتزلة فيقول البغدادي: "إن أهل السنة هم الذين دعوهم معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها في مرتكب الكبيرة من المسلمين وتقريرهم أنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منـــزلة بين منـــزلتي الإيمان والكفـــر"[٨]. ولكن احتج الإمام ابن المرتضى احتجاجا شديدا على ما قاله البغدادي بشأن تسميتهم بالمعتزلة وقال: "إن المعتزلة هم الذين أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم لا غيرهم، وإنهم لا يخالفون إجماع الأمة كما كان في الصدر الأول الإسلامي، وإنما خالفوا الأقوال المحدثة والمبتدعة واعتزلوها"[٩]. كما أن المعتزلة يطلقون على أنفسهم أهل العدل والتوحيد ويعنون بالعدل نفي القدر والقول بأن الإنسان هو موجد أفعاله تنـــزيها لله تعالى عن أن يضاف إليه الشر، ويعنون بالتوحيد نفي زيادة الصفات القديمة على الذات والدفاع عن وحدانية الله عز وجل. ومع ذلك، أن المعتزلة يعتبرون أنفسهم أهل الحق والفرقة الناجية لأنهم يرون أنفسهم على الحق. ومهما يكن من أمر، فإن كلمة المعتزلة أصبحت أشهر لقب لهذه الجماعة، ويليها في الشهرة لقب أهل العدل والتوحيد.

وخلاصة القول في هذا المقام، يمكننا أن نستنتج ونعلق على الروايات المتضاربة المتباينة السابقة سواء أكان المعتزلة امتدادا للمعتزلة السياسيين أو أطلقه عليهم مخالفوهم باعتبار أنهم معتزلة عن الحق فإن هذا الاسم قد لصق في الأذهان بهم فاستشعروه وذهبوا يجتهدون في أن يجدوا له تفسيرا مقبولا في إطـــار الشرع كروايتهم لبعض الأحاديث كحديث "من اعتـــزل مـــن الشـــر فقـــد سقط في الخير"[١٠] وحديث "ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة"[١١] كما أن هناك من الباحثين المعاصرين من يردد تلك الروايات باعتبارها أنها روايات واهية متضاربة لا يمكن اعتمادها كحجة قوية لأصل المعتزلة من حيث لم يكن اسم المعتزلة في ميدان علم الكلام مأخوذا من فكرة

---

(٧) د. عبد الرحمن بدوي، **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية**، ص ١٧٦-١٧٨.

(٨) د. عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، ص ٩٤ - ٩٨.

(٩) ابن المرتضى، **المنيـــة والأمـــل في شرح كتاب الملل والنحل**، ص ٣-٤.

(١٠) أبو القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، ص ١٦٦.

(١١) أبو القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي ، المصدر السابق: ص ١٦٦.

الانفصال عن مذهب أهل السنة والجماعة ولم يكن إذن قد اخترعه أهل السنة مضمنين إياه معنى ذم أو سخرية باعتبارهم خارجين على مذهب أهل السنة والجماعة ولم يكن كذلك في الأصل فرعا أو استمرارا للقدرية في القرن الأول وكذلك يردون أيضا نظريات الأصل السياسي للمعتزلة لأن السياسة لا تشكل سببا كافيا ولا أساسا مهما لنشأتهم. وفوق هذه وتلك، فإن المعتزلة تمثل مدرسة فكرية تأملية التي تحاول إيجاد أسس عقلية للعقائد الدينية، وتعمل من أجل وضع فلسفة صحيحة للدين تقاوم خطر الغزو الفكري الذي تعرض له الإسلام من أهل الأديان والملل المختلفة التي فتح الإسلام بلادها.

أهمية المعتزلة ودورهم كمدرسة كلامية إسلامية

وعندما ندقق في مسيرة التاريخ الإسلامي وتطوره في عصوره الأولى، فسنرى حقيقة أهمية المعتزلة كمدرسة إسلامية كانت لها أثرها ودورها في تفكير المسلمين، "وذلك لأن المسار التاريخي للمعتزلة قد صاحب المسار التاريخي للحضارة الإسلامية ازدهارا وانهيارا، بمعنى أن ازدهار الاعتزال كان في أوج الحضارة الإسلامية في القرن الثاني الهجري، كما أن غياب المعتزلة عن مسرح الحياة الإسلامية قد واكبه تدهور هذه الحضارة، ولم تكن الحالة كذلك بالنسبة لأية فرقة كلامية أخرى، فالفكر الاعتزالي لم ينشأ من فراغ أو وليد الصدفة أو مستقلا عن الظروف الموضوعية سواء كانت سياسية أو دينية للمجتمع الإسلامي"[١٢]. ومن هنا، "تأتى أهمية المعتزلة كأهم مدرسة كلامية عرضت موضوعات علم الكلام في نسق مذهبي متكامل، بل لقد أصبحت مسائل علم الكلام تناقش في إطار الحدود التي وضعها رجال المعتزلة"[١٣].

وفي حين كان مذهب الاعتزال في بعض جوانبه صدى للتيارات الفكرية والعقائد الدينية الأجنبية، فإنه كان في بعضها الآخر صدى للصراع الديني والسياسي الذي كان محتدما بين المسلمين في ذلك الحين، فمنذ أن اختلف المسلمون على الخلافة جرهم ذلك الخلاف إلى حروب دامية تأججت اشتعالا في وقعتي الجمل وصفين، وانتهى الأمر إلى مقتل عثمان وتكفير الصحابة، ومن ذلك الحين أصبحوا لا يتورعون عن ارتكاب

---

(١٢) هانم إبراهيم يوسف، **أصل العدل عند المعتزلة**، ص ٢٨.

(١٣) لويس جارودية والأب قنواتى، **فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية**، ترجمة د. صبحى صالح ود. فريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧، ج ١ / ص ٩١.

الكبائر، مما أدى إلى إثارة مسألة دينية مهمة اختلفت حولها آراء المسلمين وهى ما حكم مرتكب الكبيرة؟ وكان الاختلاف ناجما عن ميولهم واتجاهاتهم السياسة[١٤]. وكما عرفنا آنفا عن السبب في تسمية المعتزلة بهذا الاسم ما كان من اعتزال واصل بن عطاء وصديقه عمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري واستقلالهما بأنفسهما حتى قال واصل: "أن صاحب الكبيرة لا مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر"[١٥]. ونتيجة من ذلك، فالقول بالمنزلة بين المنزلتين في مسألة مرتكب الكبيرة كان رأيا جديدا أضيف إلى تلك الآراء السابقة كما كانت حركة الاعتزال رد فعل للتطرف المذهبي للخوارج المتعصبين من ناحية ولتراخي المرجئة من ناحية أخرى.

وبالإضافة إلى ذلك، قد عرفنا سابقا أن المعتزلة في حقيقتها واكبت تطورات المجتمع الإسلامي في مختلف أطوارها خلال القرون الثلاثة، وكانت تهتم بالجانب العملي السلوكي من الحياة، وكانت تعيش واقع المسلمين بعمق حتى أنها في فكرها وسلوكها كانت إجابة على ما جد في هذا الواقع من المشاكل الناجمة في مجال السلوك أو في مجال الفكر العقائدي.

إذا كان الفكر الاعتزالي في أساس نشأته الأولى استجابة لظروف اجتماعية وسياسية مر بها المجتمع الإسلامي حينئذ، واصطبغ هذا الفكر بصبغة دينية، فإنه في تطوره التاريخي اصطدام بثقافات وتيارات دينية مختلفة لا تؤمن بما جاء به الإسلام. كان أتباعها يثيرون المشكلات ويتخذونها سندا ليشككوا في العقيدة الإسلامية، ولذا كان على المعتزلة أن ينظموا وسائلهم الدفاعية لمواجهة هذه التيارات ومقاومة أنصارها بنفس أسلحتهم من فلسفة ومنطق وأساليب كلامية، وطرق جدلية ألفوها وأتقنوها لأنهم كانوا أصحاب ثقافات وفلسفات لها جذور عميقة، لذلك اطلع المعتزلة على كتب الفلاسفة وتأثروا بها لتعينهم على طريقة الجدل والإقناع كما استندوا على أدلة أخرى غير الأدلة الدينية المستمدة من الكتاب والسنة لأنها لا تقنع الخصوم، وكانت هذه الأدلة الجديدة هي ما عرفت بعد ذلك في علم الكلام بمشكلة الصلة بين العقل والنقل، وقد ميزوا بين أدلة العقل وأدلة الشرع، واتجهوا لتفسير النص القرآني تفسيرا لغويا أو تمثيليا كي يدفعوا هذه

---

(١٤) هاشم إبراهيم يوسف، **أصل العدل عند المعتزلة**، ص ٢٨.

(١٥) ابن المرتضى: المنية والأمل، ص ٤-٥.

الشبهات ويدحضوها من أساسها، ويؤكدوا أن النص القرآني كاف لبيان العقيدة وأصولها[١٦].

وإذا كان المعتزلة في بحثهم عن الأدلة العقلية وإعلائهم من شأن العقل، لم يكن ذلك منهم بسبب تأثرهم بالفلسفات والفكر الأجنبي فقط، بل أن القرآن الكريم نفسه قد أعلى من شأن العقل وجعله مناط المسئولية الإنسانية، ولأن العقل هو القوة المميزة للإنسان عن سائر الكائنات الأخرى، وقد ذم القرآن أولئك الذين لا يعقلون ولا يفقهون وجعلهم شرا من الدواب لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[١٧]. قال صاحب المنار تعليقا على هذه الآية: والمعنى أن شر ما يدب على الأرض في حكم الله الحق هم الأشرار من البشر "الصم" الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته، "البكم" الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق، "الذين لا يعقلون" أي فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل، ويفرق بين الخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا، وتذكروا وذكروا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[١٨] إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد". فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى، بأن خلقوا خداجا أو طرأت عليهم آفات ذهبت بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، بل هم شر من هؤلاء لأن هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله في سن التمييز ثم التكليف، فهم كما قال الشاعر:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوا [١٩]

---

(١٦) هانم إبراهيم يوسف، **أصل العدل عند المعتزلة**، ص ٣٧.

(١٧) سورة **الأنفال**: آية ٢٢.

(١٨) سورة **ق**: آية ٣٧.

(١٩) السيد محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٦٢٦- ٦٢٧.

ومن هنا، نجد أن المعتزلة يهتمون بتمجيد العقل وجعله أساسا للتكليف ومقدمة ضرورية له لأن الله تعالى وهب البشر جميعا عقولا. وذلك "لأن العقل عندهم هو مجموعة من العلوم الضرورية التي يخلقها الله في المكلف، وهى أساس وصول الإنسان إلى المعرفة، وذلك عن طريق التفكير والنظر في الأدلة. والأدلة عندهم ثلاثة أنواع يؤدى كل نوع منها إلى مرحلة من مراحل المعرفة الدينية، فالنوع الأول يدل بالوجوب كدلالة الفعل على الفاعل ويؤدى هذا إلى التوحيد والنوع الثاني يدل بالدواعي والاختيار ويؤدى إلى معرفة أفعال الله كما يؤدى بنا إلى معرفة عدله، أما النوع الثالث فيدل بالمواضعة والقصد وذلك كدلالة الكلام على ما يدل عليه، ويؤدى إلى معرفة كلام الله وأوامره ونواهيه. وقد رتب المعتزلة هذه الأنواع الثلاثة من الأدلة ترتيب النتيجة على المقدمة، بمعنى أن كلام الله لا يقع دلالة إلا بعد معرفة صفاته من التوحيد والعدل"[٢٠].

ومن هذا المنطلق، لقد أطلق المعتزلة على أنفسهم لقب أهل العدل والتوحيد وهما من أصولهم الخمسة وذلك لأنهم اتفقوا على عدة أصول تميزوا بها عن غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، وهذه الأصول تعد شرطا رئيسيا لمعتنقي مذهب الاعتزال. أما الأصول الخمسة فهي:

١) **التوحيد:** هو العلم بأن الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفيا وإثباتا على الحد الذي يستحقه والإقرار به. ولا بد من اعتبار هذين الشرطين: العلم والإقرار جميعا لأنه لو علم ولم يقر، أو أقر ولم يعلم لم يكن موحدا. وأما ما يلزم المكلف معرفته من علوم التوحيد فهو أن يعلم القديم تعالى بما يستحق من الصفات، ثم يعلم كيفية استحقاقه لها ويعلم ما يجب له في كل وقت، وما يستحيل عليه من الصفات في كل وقت، وما يستحقه في وقت دون وقت، ثم يعلم أن من هذا حاله، لا بد أن يكون واحدا لا ثاني له يشاركه فيما يستحقه من الصفات نفيا وإثباتا على الحد الذي يستحقه[٢١]. وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كما أنهم نفوا الجهة عن الله تعالى لأنها تؤدى إلى التشبيه والجسمية، وبنوا على ذلك أيضا أن القرآن مخلوق لله تعالى لمنع تعدد القدماء. "والذي دفع المعتزلة إلى هذا تنزيههم

---

(٢٠) د. نصر حامد أبو زيد، **الاتجاه العقلي في التفسير**، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٤.

(٢١) القاضى عبد الجبار بن أحمد، **شرح الأصول الخمسة**، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٢٨–١٢٩.

لله في وحدانيته فحاربوا كل شئ يتنافى مع هذه الوحدانية وفندوه بالأدلة العقلية واعتبروا الآيات التي تحمل معاني التشبيه والتجسيم مجازا"[٢٢].

٢) **العدل**: هو أن الله تعالى عدل مطلق، فالمراد به أن أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح ولا يخل بما هو واجب عليه، وأنه لا يكذب في خبره، ولا يجور في حكمه، ولا يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم، ولا يظهر المعجزة على الكذابين، ولا يكلف العباد ما لا يطيقون ولا يعلمون، بل يقدرهم على ما كلفهم ويعلمهم صفة ما كلفهم ويدلهم على ذلك ويبين لهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وأنه إذا كلف المكلف وأتى بما كلف على الوجه الذي كلف فإنه يثيبه لا محالة، وأنه سبحانه وتعالى إذا آلم وأسقم فإنما فعله لصلاحه ومنافعه وإلا كان مخلا بواجب، وأن يعلم أنه تعالى أحسن نظرا بعباده منهم لأنفسهم وفيما يتعلق بالدين والتكليف[٢٣]. ويترتب على قولهم بهذا الأصل جملة قضايا، مثل أن الإنسان خالق لأفعال نفسه ولاحظوا في ذلك تنزيه الله عن العجز والظلم والقبح، وتطبيقا لمبدأ العدل الإلهي نفوا المحاباة عن الله تعالى وأنه تعالى سوى بين العقلاء في التعاليم الدينية، كما أنكروا الشفاعة في الذنوب يوم القيامة لأنها تتضمن معنى المحاباة ورفضوا أن تكون الأرزاق مقدرة وقالوا أيضا بالصلاح والأصلح وهو أن كل فعل من أفعال الله تعالى لا يخلو من الخير والصلاح.

٣) **الوعد والوعيد**: وهم يعتقدون أن الوعد والوعيد نازلان لا محالة، فوعده بالثواب واقع ووعيده بالعقاب واقع أيضا، ووعده بقبول التوبة النصوح واقع أيضا، وهكذا فمن أحسن فيجازى بالإحسان إحسانا ومن أساء يجازى بالإساءة عذابا أليما، فلا عفو عن كبيرة من غير توبة، كما لا حرمان من ثواب لمن عمل خيرا[٢٤].

٤) **المنزلة بين المنزلتين**: قال واصل بن عطاء أن الإيمان عبارة عن خصال خير، إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا وهو اسم مدح. والفاسق لم يستكمل خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا، وليس هو بكافر أيضا لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه، لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة

---

(٢٢) زهدي جار الله، **المعتزلة**، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ص ٩١-٩٤.

(٢٣) القاضي عبد الجبار بن أحمد، **شرح أصول الخمسة**، ص ١٣٣.

(٢٤) الإمام محمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون سنة، ص ١٢٨.

فهو من أهل النار خالدا فيها، إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان، فريـــق في الجنة وفريق في السعير[٢٥].

٥) **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: هذا هو الأصل الخامس من أصول المعتزلة المتفق عليهـــا، فقد قرروا ذلك على المؤمنين أجمعين نشـــرا لدعوة الإسلام وهداية الضالين، ودفعـــا لهجـــوم الذين يحاولون تلبيس الحق بالباطل ليفسدوا على المسلمين أمر دينهم، ولذلك تصدوا للذود عن الحقائق أمام سيل الزندقة التي اندفعت في أول العصر العباسي، تهدم الحقائق الإسلامية وتفكك عرى الإسلام عروة عروة وكما تصدوا أيضا لمناقشة أهل الحديث والفقه وحاولوا حملهم على اعتناق آرائهم بالحجة والبرهان[٢٦]. هذه هي الأصول الخمســـة التي أجمع عليها المعتزلة ولا يستحق اسم الاعتزال من لم يؤمن بها كلهـــا.

موقف المعتزلة من قضية القضاء والقدر

موقف المعتزلة من المسألة هي نتيجة حتمية ومنطقية لتصورهم للألوهية من حيث تصوروا أن الله تعالى عدل مطلق، لا يتصور معه جور أو ظلم، فهو تعالى يجازى العبد على طاعته خيرا، وعلى معاصيه عقابا، لا مبدل لحكمه. فقد ألزمهم هذا الموقف القول بما يأتي:

١) إن جميع أفعال العباد الاختيارية، من الإيمان والكفر، ومن الطاعة والمعصية، واقعة بقدرة العبد وإرادته، على وجه الاستقلال، بلا إيجاب بل باختيار من العبد. واستدلوا المعتزلة بفكرة الثواب والعقاب وهى الدليل الشرعي لإثبات أن الإنسان مسئول عن أفعاله بفعله هو.

٢) إن الله تعالى صادق في وعده للمؤمنين بالجنة، وصادق في وعيـــده للكافريـــن بالنار، لا مبدل لحكمه. واحتجـــوا لذلك بقـــوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢٧] وقـــوله تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[٢٨] وقـــوله تعالى:

---

(٢٥) الإمام محمد أبو زهرة، المصدر السابق ، ص ١٢٨.

(٢٦) الإمام محمد أبو زهرة ، المصدر السابق ، ص ١٢٩.

(٢٧) سورة **ق**: آية ٢٩.

(٢٨) سورة **الروم**: آية ٦.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[٢٩]. وبناء على ذلك، فلا يجوز عليه تعالى أن يخالف وعيده كما لا يجوز عليه أن يخلف الوعد.

٣) وقرروا أن الشقاوة والسعادة والهداية والضلالة من فعل العباد، فبطاعتهم التي يأتونها اختيارا يستحقون السعادة، وبمعاصيهم يستحقون الشقاوة والعذاب بالنار. والدليل على ذلك لأن من أفعال العباد الظلم والجور والفساد، فلو كان خالقا لها لكان يخلق الظلم والجور والفساد ولكان ظالما جائرا، وإذا كان ذلك غير جائز فإن الصحيح هو القول بأن الله لا يخلق أفعال العباد.

٤) أوجبوا على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح بالعبد، لأن فعلهما حكمة ومصلحة، وتركهما بخل وسفه لا يجوز في حق الله تعالى. وقصدوا بالصلاح أمران: أحدهما صلاح والآخر فساد، فيجب عليه تعالى أن يفعل بالعبد الصلاح منهما، وأن يجنبه الفساد. وقصدوا بالأصلح: الأدنى والأعلى من مراتب النعيم. فالواجب على الله تعالى أن يرفع العبد إلى الأعلى، باعتباره الأوفق فى الحكمة والتدبير، والأنفع والأكثر فائدة؛ قياسا للغائب على الشاهد. وقالوا أيضا بوجوب التعويض لمن أصابه مكروه من غير إرادة منه.

٥) قالوا بالجمع بين الإرادة والأمر، فالله تعالى أراد من المؤمن الإيمان، وإن لم يقع، ولم يرد الكفر للعبد، وإن وقع منه، فهما - الإيمان والكفر - ، والهداية والضلالة من إرادة العبد وبقدرته؛ واحتجوا بقوله وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[٣٠] وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[٣١] وقوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[٣٢] وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٣٣] وقوله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾[٣٤].

---

(٢٩) سورة **النساء**: آية ١٢٢.

(٣٠) سورة **المدثر**: آية ٣٨.

(٣١) سورة **الطور**: آية ٢١.

(٣٢) سورة **البقرة**: آية ٢٨٦.

(٣٣) سورة **الكهف**: آية ٢٩.

(٣٤) سورة **التكوير**: آية ٢٨.

٦) واحتجوا بدليل العقل على حرية الإنسان في خلق الأفعال، وقالوا: لو كان مجبـــورا، فلماذا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، فتكون بعثة الأنبياء عبثا لا فائدة منها؟، ولتساوى المحسن والمسيء.

موقف الأشاعرة من قضية القضاء والقدر

موقف الأشاعرة من المسألة أيضا نتيجة حتمية لتصورهم للألوهية بحيث تصوروا أن لله تعالى قدرة مطلقة تشمل جميع الممكنات، وكل ممكن مقدور لله تعالى؛ ولا شيء مما هو مقدور لله تعالى بواقع بقدرة العبد، وتأسيسا على هذا التصور الكلي، فجميع أفعال العباد - عندهم - خيرها وشرها على السواء مخلوقة لله تعالى ، فلا خالق في الوجود إلا الله تعالى. وقد رتبوا على هذه المقدمة جملة أمور، تلزم عنها ضرورة، فقرروا:

١) إن جميع أفعال العباد الاختيارية، من الطاعات ومن المعاصي، واقعة بقدرة الله تعالى ومشيئته. فالله تعالى يوجد في العبد اختيارا لفعل معين قصده، ويخلق فيه القدرة عليه، وأن العبد مجرد محل تتحقق فيه الإرادة والقدرة الإنسانيتين المخلوقتين لله تعالى، وليس للعبد إلا الكسب؛ أي اقتران اللحظي الظرفي بين إرادة العبد للفعل وخلق الله تعالى الفعل فيه. فيكون الفعل خلقا وإيجادا وإبداعا لله تعالى، وليس للعبد إلا الكسب.

٢) يجوز في حق الله تعالى أن يغفر لعباده ذنوبهم يوم القيامة، بمنه وفضله وكرمه، وبشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم. فجاز الخلف في الوعيد وأجازوا الشفاعة وأثبتوها. واحتجوا لذلك بقـــول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٣٥] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[٣٦].

٣) إن السعادة والشقاوة، مقدرتان أزلا، فلا تتغيران ولا تتبدلان، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

---

(٣٥) سورة النساء: آية ٤٨.

(٣٦) سورة الزمر: آية ٥٣.

٤) لا يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح لأنه لو وجب عليه فعلهما، لما استحق الشكر لكونه تعالى مؤديا للواجب، وقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالشكر له، وقال: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[٣٧] وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾[٣٨].

٥) وقالوا بالفصل بين إرادة الله تعالى وأمره، فالله تعالى أراد الشرور والقبائح لأنها تقع ضمن الممكنات المقدورة له، ولكنه تعالى لا يأمر بها، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والفسوق. فالله تعالى أراد الكفر والعصيان ولم يأمر بهما، وأراد الإيمان والطاعة والهداية وأمر بهما، وأرشد العباد إليها. فالكفر والإيمان، والمعصية والطاعة، والضلالة والهداية، كلها واقعة بإرادة الله تعالى؛ واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٣٩]؛ وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٤٠] وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[٤١]؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٦) قالوا بجواز التكليف بما لا يطاق فالله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[٤٢].

٧) قالوا: لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء، فالله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، لا معقب لحكمه. فالقبح ما نهى عنه شرعا والحسن خلافه، ولا حكم للعقل في حسن الأفعال وقبحها وليس ذلك عائدا إلى أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع، بل الشرع هو المثبت له والمبين، ولو عكس القضية فحسن ما قبحه وقبح ما حسن، لم يكن ذلك ممتنعا.

القول الفصل في قضية القضاء والقدر

ويتخلص من موقف المعتزلة وموقف الأشاعرة في قضية القضاء والقدر التي مررنا آنفا نجد أن هذه القضية لا تعدو من هذين التصورين، وهما:

---

(٣٧) سورة **البقرة**: آية ١٥٢.

(٣٨) سورة **لقمان**: آية ١٤.

(٣٩) سورة **الإنسان**: آية ٣٠.

(٤٠) سورة **الصافات**: آية ٩٦.

(٤١) سورة **التوبة**: آية ٥١.

(٤٢) سورة **الأنبياء**: آية ٢٣.

أولا: أن جمعا من المتكلمين وهم الأشاعرة قد تصوروا الألوهية قدرة عامة وشاملة تشمل الممكنات والحوادث جميعها، فكل ممكن مقدور لله تعالى؛ ولا شيء مما هو مقدور لله تعالى، بواقع بقدرة العبد، وفى حسبانهم أن هذا التصور هو الأليق بالله تعالى وتوكيد لمخلوقية الإنسان.

ثانيا: وهناك جمع آخر من المتكلمين أيضا وهم المعتزلة وقد تصوروا الألوهية عدلا مطلقا لا جور معه وأنه تعالى جعل الإنسان فاعلا قادرا مختارا ويحتمل نتيجة أفعاله، خيرا كانت أو شرا، طاعة كانت أو معصية، إيمانا كانت أو كفرا، هداية كانت أم ضلالا.

والمتأمل في الآيات القرآنية في كتاب الله المجيد سيجد أن القرآن الكريم قد يسلك منهجا سديدا في قضية القضاء والقدر من حيث أنه يجمع بين مقتضى توحيد الربوبية بالإقرار بأن لا خالق في الوجود إلا الله، الذي هو من لوازم توحيد الربوبية، فالله تعالى خالق كل شيء وبين مقتضى الشرع الذي مبناه أن الإنسان العاقل مناط التكليف والمسئولية الأخلاقية، فهو فاعل حر مختار لأفعاله، يجازى عليها شرعا وحكما ويعاقب عليها دينا وعقلا.

إن القضاء والقدر في منهج القرآن الكريم قدران؛ أحدهما: قدر وقع وتحقق فاستقر فيكون دفعه بقدر يرفعه ويزيله كدفع قدر المرض بالتداوي ودفع قدر الذنب بالتوبة والاستغفار وذكر الله تعالى ودعوته. وثانيا: وقدر لم يقع والواجب حياله ؛ أن يواجه بقدر يقابله ويتحداه لمنع وقوعه كدفع العدو الكافر المتربص بالأمة بالجهاد ودفع مخاطر الفيضان ببناء السدود.

الخاتمة

أود في النهاية أن أشير إلى بعض النتائج التي توصلت إليها من خلال حدود بحثي، وقد قصدت من خلال هذا البحث إلقاء الضوء على الفكر الإسلامي عند المعتزلة وتتمثل أهم النتائج التي استخلصت منها البحث فيما يلي:

١) أن نقطة الانطلاق في مذهب المعتزلة الاختيار والحرية أي فعل العبد غير مخلوق فيه، وهذا راجع إلى قولهم بأصل العدل، ولذلك كانوا يطلقون على أنفسهم أهل العدل والتوحيد.

٢) بحث المعتزلة في قضايا ذات صبغة عقائدية وفلسفية مندرجة تحت أصل العدل مع تطبيق الجانب العملي السلوكي في مبادئهم العقائدية، وهذا الذي جعلها ذات طابع مميز عن الفرق الإسلامية الأخرى وقد أحاط بها كثير من الخصوم من أهل السنة وغيرهم.

٣) بالرغم من أننا نجد خلافا بين مذاهب بعض رجال المعتزلة إلا أنهم اتفقوا على حد قول الخياط وهو أحد رجال المعتزلة في كتابه الانتصار على خمسة مبادئ لكي تميز نفسها عن الفرق الإسلامية الأخرى، وكان لا يستحق اسم الاعتزال إلا من يجمع القول بهذه الأصول الخمسة وهى: التوحيد - والعدل - والوعد والوعيد - والمنـــزلة بين المنـــزلتين - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤) يمثل المعتزلة اتجاها رئيسيا يختلف عن اتجاه أهل السنة والأشاعرة أو أهل الظاهر الذين يتمسكون بالنصوص القرآنية وعدم الإسراف في تأويلها. واتجاه المعتزلة يتمثل في النـــزعة العقلية الواضحة، فقد قاموا بتأويل الآيات القرآنية تأويلا عقليا وهى الآيات المتشابهات بحيث أرادوا من ذلك تحقيقا صورة تنـــزيهية لله تعالى بعدله وحكمته يرتضيه العقل.

٥) حاربوا الجمود وأباحوا التأويل وجعلوا العقل هو الحكم الذي يفصل بين الآيات المتشابهات حتى قال بعضهم أن العقل يعد ضروريا كالحواس، وأنه كالحاسة السادسة. ولذلك، يرى المعتزلة أن العقل هو أصل الشرع إذ أن صحة الشرع متوقفة على العقل فلا يمكن أن نستدل على أصلي التوحيد والعدل بدلالة السمع بل نستدل عليهما بالعقل.

٦) المعتزلة وسعوا مجال المعرفة الدينية فدعوا إلى الشك على اعتبار أنه خير من اليقين الذي لا أساس له، فأبو هاشم البصري قال: الشك ضروري لكل معرفة وقال أول واجب على المكلف هو الشك لأن النظر العقلي إذا لم يسبقه حالة شك فلا فائدة. وهذا الشك قد أثر على المفكرين من بعدهم حتى فى خصومهم كالغزالي على سبيل المثال. قال في المنقذ من الضلال بأن من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمي والحيرة. والشك عند المعتزلة يرتبط بإيمانهم بالعقل. هذا الشك وارتباطه بالنظر العقلي أدى إلى بعض صور التطرف عند المعتزلة، لكن بالرغم من هذا دافعوا عن الإسلام دفاعا مجيدا كما أن الشك يسر لهم الثقافات الفلسفية التي لن تتيسر لغيرهم فاستطاعوا إبطال حجج المشركين والدهرية والملحدين وغيرهم من الفرق المنكرة ولو لم يكونوا

مزودين بهذه الثقافات الأجنبية لما تمكنوا من نقض حجج خصومهم لأن المشركين والدهرية تزودوا بالحجج الفلسفية.

٧) يلاحظ على المعتزلة أنهم قد اعتمدوا على استخدام المنهج العقلي وتقديم الاستدلال به على سائر الاستدلالات الأخرى وقد تناسوا أنه لا يمكن الاستدلال بالعقل على جميع أمور ومسائل الدين. كما اهتموا بتأصيل اللغة وتحليل الألفاظ وتعريفها سواء من الناحية اللغوية أو من الناحية الاصطلاحية وهو ما يعبر عنه مصطلحا بالتجوز.

٨) نفيهم صدور القبح والظلم عن الله تعالى طبقا لأصل العدل لأنه ليس من المعقول أن يصدر الشر عن إله خير حكيم، فالشر موجود في العالم من فعل أنفسنا دون مساس بعدل الله وحكمته، فالله لا يريد الشر ولا يأمر به.

هذا ما استطعت التوصل إليه من خلال بحثي المتواضع والذي أرجو أن يرشدني الله تعالى إلى الصواب والله تعالى الموفق للسداد.